خواطر.... الحلقة الأولى الدكتور/ عمر محمد العماس

أمسيات في قادم قفريت

إنّ الدخول في متاهات التسفار.. يوحي بالتجديد، والتوق إلى التوغل، في بؤر قد تشفي الغليل ساعة زمان... وقد تؤدي إلى انثناءات يعلو من ورائها، أوار وضجيج مضنيان... تتكشف من خلالهما تبعات لم يكن في الحسبان ارتيادها.. حتى إذا ما كان الأمر لا تختلط فيه الرؤى.

قد يبدو المسار بعيدا أو عميقا... بحسب ما ينغمس فيه المسافر، وبالذات لجهة يجهل مكونات شعابها وحواريها... فغالبا ما تختلط عليه أبعاد المسافات بين هذا وذاك... فتعلو وجهه ظلال العبوس تارة، ومن ثم **(تكشيرة).. لا** يُعرف لها أصل، يملؤها التوجس والخوف أحيانا.. وقد يبتسم ما بين الفينة والأخرى، من غير ما سبب واضح للناظرين إليه، اللهم إلا من خلال منظاره الداخلي... الذي يظل يطوي المسافات ما بين ناظريه.. وأغوار نفسه التائه، التي تتولى كل شئ.. لكنها توحي بأن إدراكه البصري.. ليس بعلم بما يجري ويجوس بالداخل..فالنفس البشرية مجمّع ل**..(عُقد)** يصعب اقتلاع جذورها أو تبين محاورها ...

لكني وبرغم ذلك تيممت صوب **(قادم قفريت)** وأنا برفقة اثنين من أبناء الدفعة هما: **الدكتور/ خلف الله قرّاش- اختصاصي الصدر.... والعقيد بحري، وقتها/ عبد الرحيم الأمير**... كان الأمر آنذاك يتعلق بالوقوف على حالات **(السل)** المرضية، في قطاع هام من ديارنا السودانية ... ذلك المرض الوبائي الذي أعلن حربه على الأمة السودانية... في ثمانينات القرن الماضي، حيث تساقطت من جراء سمومه المهلكة... الآلاف من أرواح أبناء الوطن الغالي...

كانت ساعة انطلاقة مسيرتنا هي توسط شمس ذلك الصيف الحارق، للسماء ... من يوم مصيف... فسماؤه صافية، بلا كتل أو حتى كسر من السحاب، الذي قد يبعث في دواخلي الشعور بالارتياح، وأنا أقتحم.. مستكشفا أراضي مجهولة تماما بالنسبة لي... كما أستطيع أن أقول مؤكداً... أن من أرافق ليس بأعلم مني، بأدغال تلك الأراضي الجديدة...

طوى بنا السائق.. ذو العشرين عاما، أفياءً .. و وهاداً متمددة من الرمال والحصى بأنواعه... في سرعة فائقة، حتى أني:

تلمست جنبي من فزع فقـد

ضاق صدري بما يحتويه وحارا

omerelamin.com

وغمغمت الشفاه بفاتر متلعثم

يبدو ولا يبدئ الحديث جهارا.

هامسا في أذني الدكتور.. موحياً له بأن الموت قد دنا ..

وتذكرت مالك بن الريب الذي قال:

يا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا،

برابية إني مقيم لياليا...

وخطا بأطراف الأسنة مضجعي،

وردا على عيني فضل ردائيا..

لأول مرة أتنصل عن ديمقراطيتي وأومن بأن للتسلط **(حوبة)**... فرأيت حينها أنّ صرف الأوامر والتعليمات.. لذلك الشاب الذي **(أُحس بأنه متهور)..** أصبح واجباً ..فاستجاب لي الدكتور، وأُصدر أمره الذي يبدو أنه قد تبنى شكواي بحميمية فائقة، لأنه وعلى ما أظن... يشرب من نفس الكأس الذي أرتشف منه جرعاتي **(المتأسفات)..** والمريرات، في نفس الوقت...**(وكمان صاحبي الضابط زاد الجرعة شوية بى هرشة قوية)**، لكني لا أحكم إن كان يخشى الموت **(زينا)** أم لا .. لكن وحسب ملاحظتي.. أنه كان **(أرجل مننا شوية)..** أما أنا فالتزمت بسنة أهلي المعلمين، الذين لا يبدون سخطهم أو احتجاجهم، مهما تشعب الأمر واستشرى، فلذت بالصمت... أقرأ في وجه السائق ماكُتب بخط واضح وبين: **(دول ناس شنو الجبانات دول)....**طبعا الحروف كلها مفخمة، بحسب ما تنحوه لهجة أهلنا البجا... حيث ينطقون الدال ضاداً، ويعطون الجيم حقه من التفخيم... حتى تحسبه كبير أناس في بجاد مزمل.

اقتحم بنا الشاب البجاوي طرقا غير معبدة كتلك التي سلكنا من قبل.. إلا أنها تتميز عنها بكثرة الكثبان الرملية المتلاصقة... التي تحسبها **(قوز واحد)** ..تتفاوت في ارتفاعاتها، وفي مقاماتها، فالكثير منها يتسيّد الموقف ما بين الفينة والأخرى... و أخاله يقول: لجاره من الكثبان ..أنا أرفع منك مكانة و..**(أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً)** (صدق الله العظيم) ..وكأن السائق قد تجاوز الأوامر والتعليمات ف..**(داس البنزين لى الصاجة)**، وأخذ يقفز كما تفعل أختنا أنثى حيوان **(الكونجارو) (وهي من ذوات الثدي الأصيلة حسباً ونسباً)**... بين تلك الشجيرات المتفرقة، خوفا على نفسها وعلى رضيعها... فظلت العربة تقفز من قمة لقمة.. ومن قمة لمنخفض.. على غير

omerelamin.com

هدى، ولم يكن هنالك سيد يسود غير الصمت... المدفون في جوف الخوف والتحسب... حتى **(القنتة)** أصبحت تطلق سراً...وأصبحنا كأنا لا نعرف بعضنا البعض...وعلمت ساعتها أن **(كل نفس بما كسبت رهينة)**، وأدركت معنى الآية: **(يوم يفر المرء من أخيه)** ... وعرفت ما تعنيه الآية **(فأما من أوتي كتابه بيمينه)** ...والآية **(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره)** ..

قطع تفكيري وتأملاتي الدينية، صوت السائق الذي صرخ عالياً ليقول: **(ما في تريقة إلا كدا)** وهو يعني **(طريقة)** ....وأردف ونحن تكبلنا أصفاد الصمت: **(الأربية بيوهل لو رفأتُ كُرائي من البنزين)** ..وتركني أناجي نفسي واقول: **(أحسن نتوحل هنا ولا في الآخرة؟؟؟)**..ولنسألك عزيزي القارئ: **(دي رحلة ترفيهية ولا تهلكة..أما يجوز لنا أن نسميها .. الرحلة الأخيرة...في الطريق إلى الموت؟)**.

أربعون من الدقائق الطويلة جدا... ونحن بين الكثبان... والتي تنقضي في تأن ممض، وفي تبختر.. وخيلاء.. وزهو **(الطاووس)**، وفي **(دغالة الحمار الديراوي)**..فهي تمشي **(خطوة... خطوة... اتنين مستحيل)** ...أنقضت أربعون دقيقة ونحن ثلاثتنا ممسكين.. وقا بضين على المقاعد، غير الوثيرة، والتي زاد التصاقها بنا... حتي خلناها بعضا منا ..وأبصارنا شاخصة توحي لنا بأنّا لا زلنا على قيد الحياة ..وأن في العمر بقية.

هاجت بي الذكرى فرجعت للوراء أمداً سحيقاً... واختلطت في ناظري الآمال والأوهام، فطافت بي للأمام امتداداً بعيدا... وأمّلت من بينها ساعة الوصول للهدف المجهول... ولكني أسترجع وأقول: لنفسي فقط... **(الآمال كذابة)** ...ترجلت **(يعني بقيت راجل)**، وهمهمت لجاريّ المتصلبين في مقعديهما، فلم أجن غير الصدى الأكّال الذي بدد لدي، كل أمل في البقاء على قيد الحياة..عدت أدراجي متلفعا بصمتي.. الذي يضج صاخبا بين أضلع.. أبلتها المنون وفاتها الجرّاح ..لكني لم أبك... **(والله ما بكيت)** ..تماسكت ..وتفقدت نظارتي ولم أجدها... لا شك أنها طاحت بعيدا حينما اصطدمت جمجمتي بسقف العربة، في إحدى القفزات **الكونجارية** اللعينة... فشعرت، الآن فقط، (إنّو) **(رقبتي وجعتني)**، فحسّبت **(الحكاية)** جيدا... لا غرو فأنا **(كنت جبت في مادة الرياضيات في الشهادة السودانية جيد جدا)** وعليه **(ضرّبت الخماسي في السداسي)**... وتوصلت إلى أنه: إذا أخطأني الموت هذه المرة، ف**..(الطايوق) (مقطوع..مقطوع)**...

تركت إحدى يديّ، طائعة مختارة، مكان قبضتها بمقعد العربة الذي أجلس عليه... وأمسكت **(كتر خيرها)** بالرقبة المغلوبة على أمرها... في سبيل **(استعدالها)**، يخيل لي كنت أترنم وقتها **(مجرد خيال)** وأقول:

يوم قسموك يا هم كتبوا عليك

اسمي...

لو كان رووك بالدم يا هم رووك

دمي...

أنا لو رضيت بالهم ما برضى بي

همي.

بعد الذي حدث ل**..(رقبتي وطايوقها)**، نسيت الرمال... ونسيت كل مكونات التربة.. وخواصها.. والزراعة.. والحصاد.. وحتى **(اللكل والشراب)..** وأصبحت أردد المثل القائل: **(كان جاتك في امسنبوك تنسيك أمك وأبوك)...**فنسيت أني درست علوم الأحياء... في حقبة مضت... وأنا الآن أشهد آخر خطوات تلك الحقبة، المنحدرة نحو غياهب الزوال.

omerelammas.com

خواطر...الحلقة الثانية **الدكتور/ عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت.

أربعة من الساعات انقضت تجرجر بعضها بعضاً... في قوالب وخطوات مثقلة بالأسى، والضجر .. تنوعت وتعددت فيها مآلات الترقب.. والتوجس.. والشتات، تُمرغ في الوحل كل أحلام الرضاء... وإشراقات السرور، التي أثقلتني بكل ما تدخره من إيلام.. وأسى مضنيين... أما أنا فأثقلتها بالشكوى.. وعدم القناعة المترادفين... بما كان يجري من أحداث متوالية... تهافتت عليّ من حيث أدري ولا أدري... أهون ما فيها كان أقسى ما لاقيت منها.

(تدحرجت) بي المسافات أخيراً... الى ما أطلق عليه مجازاً **(ميس الدكاترة)**، أو **(ميز الدكاترة)...** في بقعة تتوسط الخلاء القفر، هي مدينة **(طوكر)** التي لم تخل من شئ على الإطلاق سوى سمات ومعالم المدينة.

أكرم الأطباء نُزُلنا أيما إكرام... وهذا أمر طبيعي لدى السودانيين في أي دار أو موطن من الأرض يعمرونه... ولا يفوت عليك عزيزي القارئ... أن من بيننا نحن الثلاثة اختصاصي كبير في أمراض الصدر... ونحن الآن بين أفراد قبيلته.

كل شيء كان دسما مثل دماثة أخلاقهم... وحسن استقبالهم لنا.. فكل شيء كان ميسراً، الأكل.. والشرب.. و **(الكلام الحلو)**، الذي كان لا يخلو من جمل وعبارات المثقفين عندنا... وبالذات الأطباء، الذين كثيرا ما يخلطون العربية بالإنجليزية المحشورة حشرا... لتدلل على مدى العمق الثقافي لدى المتحدث، والتي كثيراً ما تعجب المتلقين البسطاء من العامة .

كل المداخلات والقصص كانت تميل إلى جانب الدُعابة... التي دائما وفي مثل هذه الحالات.. تمثل مفتاحاً حتمياً آمناً.. لتثبيت **(الخلطة)** و **(تسبيكها)** بين المجتمعين، الذين لم تتوافر لهم لحظات للتلاقي في أزمان توارت .. يبدو أني الوحيد الذي كنت أحمل **(بدل الهم)** همين كبيرين: أولهما **(رقبتي)** وثانيهما **(الاندماج)** في ما كان يجري من حديث ومتابعته.. إذ أن أخبار الموت كانت تلسعني بألسنة قاسية لاسعة.. ما بين الفينة والأخرى... كلما تطرق لذلك السمار من حولي... فحياتهم كلها تشريح، وتقطيع، وموت.

انعطف مجرى الحديث وسار نحو الكثبان الرملية **الطوكرية...** فكان الحديث مخيفا.. أحسست أنّ **(دقات قلبي المهرود)...** تدافعت.. وتعاقبت في سرعة مذهلة...

omeralamnas.com

لم تدع **(للرجالة)** مقاماً عندي**..** أو لقوة الصمود والاحتمال مجالا يذكر..غير أنّ أكثر الحديث رعبا كان... ما تناولته أذناي المفتوحتان بالكامل، عما يتعلق بالحوادث المرورية المؤلمة، و بالذات حادثة رفيقهم الطبيب **(فلان)...** الذي ارتضم رأسه بسقف العربة، التي كانت تتقافز ما بين الكثبان، في وثبات متتالية **(مرة فوق ومرة تحت)** ... تخيلت أنهم قصدوا نقل الرسالة إليّ مباشرة... إلاّ أنهم لا يعلمون شيئا للذي جرى ل**..(رقبتي)** المنكوبة...

طافت بنا لحظة صمت لا يسمح وقتها إلا **(بجر النفس وبس)**... لكني خلتها طويلة جداً... فهي كانت أطول من ليل الآلام، فتساءلت في اهتمام بالغ وقلت: **(أها...؟)** لا أعلم كيف خرجت أداة الاستفهام تلك من بين شفتين جريحتين، من فرط الأسى، متباعدتين و **(ناشفتين)..**في نفس الوقت، وكنت أعني بذلك مواصلة الحديث، الذي أستطيع من خلاله تشخيص حالتي المرضية **(العضوية والنفسية)...**ومما ساعدني على **(التصنت)**.. إذا شئت عزيزي القارئ فضع علامة الكسر على التاء الأولى، وعلى الصاد، وشددها على النون... انقطاع التيار الكهربائي أثناء تلك الجلسة... التي لا نتبين فيها التفاصيل الدقيقة، للسمات التعريفية لدينا... وهي غالباً ما تكون عند **(ألحكي)** متجمعة في **الوجه... (ولو كانت الكهربة جات في الوكت داك، كان وشي عبارة عن.. سبورة مليانة بى شخبتة معلم جديد.. يا دوب في حصته الأولى)**

أرخيت سمعي بإرهاف لم يعهده قبلها... وزاد سوادُ الخبر، وسوادُ الليل، الذي أصبحتُ مندساً في زواياه... سواد نفسي الداخلي، الذي لم ولن يتبيّنه أحد من الجالسين... فتذكرت تلك **(الضُلمّة)** التي تتحرك أثناءها المفزعات من الكائنات...الأسطورية، والتي كانت تحملنا مرغمين على النوم مبكرا **(أيام كنا صغار)...** فصمتُ وصمت الجميع ... متابعين تفاصيل مأساة الدكتور **(فلان)** المنكوب...

تجول بنا الحاكي ما بين مستشفيات الخرطوم، ومستشفيات القاهرة، وما بين **(تخريم)** الجمجمة، وشدها بالحبال والجنازير... ومن ثم شلل الجسم بالكامل، بتلف **(الطايوق)** وكانت النهاية.. وهنا مربط الفرس بالنسبة لي **...(كل شيء ولا الطايوق دا).**

أليل ذلك الليل... ولا أدري كم من الساعات كان طوله... ولا أعلم، أو أذكر أني قد فقدت وعي أثناءه... بعد أن أرخي النعاس أستاره على جفني القلقين... لكني أدرك تماماً، أن شمس اليوم التالي أشرقت... تشتتُ في الأرجاء ضياءها الصيفي الوافر.

omerelamin.com

خواطر...الحلقة الثالثة. **الدكتور/ عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

دخلت المدينة في صباح ذلك اليوم متربصاً... مترقباً... أهفو لاستكشاف المزيد، فتمكنت من معرفة بنيتها.. ووضعها الجغرافي، تماماً، تجولت بين شوارعها التي شدت انتباهي إليها كثيرا... مقارنة بما شاهدته في مدن.. أو حتى قرى.. أخرى، إلا ما قد كان متمثلاً أمامي.. في مدينة **(بيشة)** السعودية، عند زيارتي لها في زمان سابق... فهي تقع في نفس خط العرض الذي أنشئت فيه مدينة **(طوكر)**..

تتكون المدينة كلها من ثمانية وعشرين صفاً من منازل متشابهة، في أشكالها ومساحاتها... شيدت من الطين **(الجالوص)...**فهي متلاحمة ومتلاصقة تماماً.. **(الكتف مع الكتف)**، مع بعضها البعض.. يلتصق مع كل منزل.. نظيره في الاتجاه المعاكس له.. والذي يتفاعل سكانه **(الملاصقين ليهم)** مع جيرانهم... عن طريق **(النفاج)** المعروف لأهل السودان، والتي قل ما تجد بينها شوارع أو **(أزقة)**، إلا ما ندر... ومن الغريب أن صف المباني، كان يشيد مع الأوتار.. وليس كما هو معهود لدينا... يقام على نظام الاتجاهات الأربعة المعروفة... يعني يتمدد صف المنازل حسب الوتر، من الشمال الشرقي.. للجنوب الغربي، وهي تقع في واد غير ذي زرع محاطة **ب..(ردمية ترابيه)** عالية.. **(ترس)**.. كم ذقت في سبيل تسلقها الأمرين، أقيمت لحماية المدينة من السيول ومن السوافي.

تطلى وتُحصّن المنازل **ب..(الزبالة)، والزبالة** هي عبارة عن مكونات معينة متوافرة في البيئة، يتم تخميرها.. لعدة أيام ..بالطريقة الآتية:

(تُكوّم) في شكل **كومة** لا تعلو قمتها عن الأرض كثيرا... وتتكون من روث **(بعر)** الحمير... وهو أجود أنواع **الزبالة،** مضافاً إليه التبن إن توافر وهو قش سيقان نبات القمح المهروسة **(الناشفة)** ... مدعمة في فترة لاحقة، **ب..(الرقيطة)**، أو **(الرقيطاء)** إن شئت...وهي التراب الطيني الذي يجعل **الزبالة** أكثر لزوجة.. وأسهل.. وأقوى التصاقا بجدران المنزل ...**(الغرف)** أو جدران **(الحوش)**، الطينية... يلي ذلك إضافة الماء...ومن ثم تترك هذه **الكومة** على حالتها تلك... لعدة أيام، لحين اكتمال عملية تخميرها...

بعد أن يتأكد صاحب الشأن من اكتمال عملية تخمير **الزبالة**... تتم عملية **(القلب)**، بتخفيف القاف .. لتنطق بمثل ما تنطق كلمة ...قمرية... وكسر اللام، بمعنى أن تُفتح **الكومة**.. وتضاف إليها (**الرقيطة**) وعندها تفوح رائحة **الزبالة** المميزة فتزكي أنوف البعض.. وتزكم أنوف آخرين... بعبيرها **(الروثي)** الذي يقوم

(الزبال) بعجنه مستخدما **(الطورية)**.. ورجلية الشريفتين الحافيتين، اللتان تساعدانه كثيرا في الحصول على لقمة عيش شريفة.. وحلال، في ذات الوقت.

تسمى عملية إلصاق **(تجليط)** الزبالة بالحائط **(التزبيل)** أو **(مسح الزبالة)..** عن طريق مسّاحة معينة.. ملساء... مستطيلة... ومسطحة في مساحة... ٣٠ x٢٠ سم مربع بالتقريب .. تصنع من الحديد.. بمقبض خشبي... في الغالب الأعم ، على سطحها الآخر يعني... **(ضهرا)**، توضع عليها **الزبالة** بعد أن تعجن تماما بالماء وتصبح **ك..(المديدة)**، يضعها **(المناول)..** وهو الشخص المساعد **ل ..(المساح أو الزبال) ..على** المسّاحة، التي يمسك بها بيده اليمنى .. إن لم يكن أشولاً.. في وضع يمكنه من تناول **(اللقمة من الزبالة)**.. ومسحها أو **(تجليطها)** بكاملها على الحائط، بعناية.. ودقة.. متناهيتين، غير أن البعض من **(الزبالة)** يتساقط أثناء ذلك.. على الأرض، إلا أنه لا يشكل هاجسا.. لقلته ...

تغطى المنازل بالسقف البلدي المعروف المكون من الأعواد متساوية الطول والحجم... غير أن هناك أكبرها الذي توضع عليه الأعواد أو العيدان **(الرصاص)** وهي **(المرصوصة رصاً)...**يعرف هذا العود الكبير **ب..(المرق)**، بكسر الميم والراء، وهو يقطع من أشجار تتمتع أخشابها.. بالصلابة والقوة، والذي نادرا ما تعيس **(السوسة)** الفساد بداخله، فهو يقوم بحمل كل **(الرصاصات)** وما صاحبها من **(القنا، أو المطارق، والتبن، والرقيطة، والزبالة)...**وفي كثير من الأحايين يسند **(المرق)** بقائم **(شعبة)**.. لها طرفان صغيران تعرف ب**..(الأمينة)** كل ذلك من أجل تأمين السقف وحفظه من السقوط.

داخل أحد هذه الغرف.. التقيت بشيخ عجوز اسمه **(محمد عامر)**، يبلغ من العمر نيفاً وتسعين عاماً... وهو شيخ ضرير من قبيلة الشايقية... الذي جاء به الزمان لهذه البقعة من الأرض صبياً...وهو المؤذن المعتمد لمسجد الحي الذي يقطنه... كان لإبنته الصغرى **(هند)**... الفضل في قيادته وتوجيهه.. كي يسلك المسار الآمن الذي تتخلله أغصان **(الزرايب)** الشائكة... وأكوام التراب **(الدراب)** و **(البعر)**... من مخلفات الحيوانات الأليفة المختلفة، كالأبقار.. والحمير.. والماعز.. والضان.. والجمال، وغيرها.. مما قد يعترض طريقه، وذلك عبر الإمساك بطرف من طرفي عصا طويلة... كي تسهل لها قيادته، بأمان للمسجد ومن ثم للبيت، بعد انتهاء عمليتي الآذان والصلاة معاً... يالها من ابنة فاضلة.. وبارة بأبيها تلك هي **(هند)** ذات السابعة من العمر الطفولي الرائع، التي ترعرعت.. ونمت، في عمق ذلك الزمان الجميل المكلل بالوفاء.

جالست ذلك الشيخ وقلت له: **يا..(ودعامر)!** وهذه كنيته التي يرضاها وتحلو له كثيرا كما علمت ذلك، **(إنت طوكر دي سموها طوكر لى شنو؟)** .. لم **(يتلفت)** كثيرا بل استرسل في الإجابة.. بلسانه ذي النكهة الشايقية الآسرة... التي لا تخطئ الإمالة إلاّ قليلا...قائلاً:

((كان أهلنا بقولولنا.. المنطقة دي كانت **(أرضها)...** بكسر الراء.. طينية (لكّة)..بضم اللام وتشديد الكاف المفتوحة، وما بجيها زولاً ساكت.. إلّي (بكسر الألف واللام المشددة المكسورة) للزراع.. بكسر العين.. وكان كل زولاً داير ينصحلو زول بقولو: إت كان مشيت طوكر دي بتوحل في الطين وتاني مرقتك تبقالك قاسيي أُو بتتوكر..وبى طول الوكت سموها **(توكر)** ومشت الكلمة وبقت **(طوكر)...))**

إلا أنّ شاباً يدعى **(الناصر)** من أولاد الجعلين أفادني بالآتي:

(أثناء الحملات العسكرية في الحرب العالمية الثانية، كان أحد القواد العسكريين، من الخواجات المحاربين المتقدمين.. إلى منطقة الشرق، قد استهدف منطقة **(طوكر)** هذي، وعندما سئل إلى أين أنت متحرك قال:

(تُو أوكر) ويشير ذلك إلى إسم قديم لها هو: **(أوكر).**

وبالتقادم والتحريف... أصبحت كلمة واحدة نقلت للعربية **(طوكر)**، وقد كانت كلمتان تتكونان من:

TO

and

OUKER

وقلبت التاء طاءً مفخمة حسب اللهجة المحلية.

omerelamin.com

خواطر... الحلقة الرابعة **الدكتور/ عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

ساقتني قدماي إلى سوق المدينة المتواضع (جدا) ...وتلفت كثيرا فلم يشدني نحوه إلا مكونات.. وسمات الفلكلور والتراث... الخاص بمنطقة **(شرق السودان)**، والذي لم يوضع.. أو يحفظ، تحت أي نوع من الرعاية...فجلست على كنبة متواضعة بإحدى المقاهي البائسة.. اليائسة، علني أتناول كأسا من الشاي.. المجروح، على يدي ساقي **(جرسون)**، لطف الله به أن يكون حيا... حتى ساعة جلوسي تلك...

أمرت بكأس واحدة من الشاي **(السادة)..** فجائتني الكأس على استحياء.. **(تتجلفق)** بين يدي الساقي، غازلتها بعينين منكسرتين.. لا تجيدان **(التبحلق)** ولا حتى تسليط النظرات الثاقبة... فقد أدركت أننا **(أنا والكباية)**، لا نطيق بعضنا.. ولا نتقبل المجالسة معاً.. لكنا صمتنا، كل يرمق صاحبه من وقت لآخر، متمنياً له الزوال.

وأنا في تلك الدوامة... أحسست أن الكنبة تأرجحت و تحركت.. وشعرت أني **(أنخجيت معاها)...** فقد جلس إلى جانبي، في الطرف الآخر من الكنبة، التي أنا قابع فيها، رجل في مقتبل العمر... يزين جلبابه القصير.. الذي لا يسبل أستاره.. على ذلك **(السروال أبتكة الكبير)...** الذي تتدلى رجلاه و **(تكته)** الطويلة... حتي **(كويرة الشيطان)...** يزين الجلباب سديري **(أبيض بى أسود)** وثوب **(بنقالي) ...** خفيف... لا يكاد يواري ما بداخله، وهو الذي قادني إلى ضباب الشاعر **(السياب)** حين وصفه :

مثل الحرير يشف عما لا يبين...

وما يبين،

عما نسيت وكدت لا أنسى...

وشك في يقين.

كان الرجل يحمل عصا غليظة... لا يتغشاها قصر ولا طول، وهي التي تعرف ب..**(القرجة)...** ظل ينقر بها على الأرض مراراً وينادي بالساقي :

omeralmas.com

بالله تدينا إتنين جبنة **(أدار كلوب)...**والتفت إلى قائلاً: **(إشرب جبنة أهسن.. أنا ما تحب الشاي. إنت من فين؟)... وتم** التعارف بيننا.. وبدأ يحكي... ويحكي... وأنا أمثل أذناً صاغية.. وأرضا خصبة للاستماع، وأرتشف من تلك القهوة التي أطلق عليها جليسي كلمة **(أدار كلوب)...** فكان لمذاقها في لساني، قبول للحد الذي يمكنني أن أتواءم مع طعمها اللاذع...

حكا لي جليسي.. في تلك اللهجة المحببة لي.. منذ تلك اللحظة وحتى الآن، تلك اللهجة التي تقلب فيها الحروف العربية إلى غيرها.. تخفف تارة وتفخم أخرى...وكان من بينها أن قلت له: نحنا أهلنا أدونا ... فقاطعني صائحاً قبل أن أكمل حديثي :**(أضوكم شنو؟)...** وهنا قلب الدال ضاداً... فحدثني كيف أن **(الحرامي)** ضربه **ب..(السيخة)** وهو نائم... وما أفاق إلاّ وهو على سرير المستشفى بعد **(سبعتاشر)** يوم ...ولم يفتني أثناء تلك الثرثرة... أن أتساءل عن **(الأداركلوب) !** فعرفت أنها نوع من **(قليات)** البن، بتخفيف القاف...لا يرقى فيها لون حبات البن... حينما تُقلى... إلى اللون الأسود الفاحم.. بل الفاتح.. يعني...**(خاتف لونين)..**

استفدت أيما فائدة من حديث ذلك الرجل... فقادني الخيال و **(السرحان)** ساعتها إلى **(فينيسيا)** تلك المدينة العائمة... بجنوبي إيطاليا، حيث تم اللقاء بين إحدى الحسناوات الشرقيات... والشاعر الرومانسي المصري... علي محمود طه المهندس، قرب **(ساقي)..** تخيّر أجمل المواقع، لتسويق ما يعنيه من المشروبات، فجلسا إلى قرب **(الساقي)** فأنشد الشاعر حينها يقول :

مر بي مستضحكاً في قرب ساق

يمزج الـــراح بـــأقداح رقاق

قد قصدناه على غـــير اتفاق

فضحـــكنا وابتسمنا للتلاقـــي.

ما ترى الأغيد وضاء الأسرة

دق بالساق وقد أسلم صدره

لمحـــب لف بالساعد خصره

omeralmas.com

ليت هذا الليل لا يطلع فجره

ذهبي الشعر شرقي السمات

مرح الأعطاف حلو اللفتات

كلما قلت له خذ قال هات

يا حبيب الروح يا أنس الحياة

تتطابق المسميات.. وتختلف المقامات.. هكذا دائما لدى بني الإنسان... فهل يا ترى يتشابه **(الساقي)** عندي وعند المهندس؟... الكأس لدى المهندس تُحتسى... وكأسي تُدلق و**(بالذات لو وقعت فيها ضبانة)...** يمكن للناظر أن يمعن النظر في كأس **(علي)** أما كأس **(عمر)** **!** فيكفي أول نظرة... وما بعدها يعتبر وزراّ يحاسب عليه...كان جليسي في مقهى **(طوكراوي)...** رجل يحمل أدوات الحرب في يده.. وأهمها ما توارى عن الأنظار.. معلقاً على عضده الأيسر**!** وجليس المهندس **(الفينيسي)** وديع.. أغيد.. ضاحك، تزين أنامله وردة آسرة....

لكني والحق يقال كنت مستمتعاً.. وأنا أتقارع كؤوس الراح الحلال، مع جليسي **(الطوكراوي)...** كأشجار مقرن النيلين... التي أنشد فيها شاعرنا عبد الرحمن الريح حين قال :

في المقرن تشوف الأشجار صفوف

والنيل حـــولها كالعابد يطـــوف

تـشرب من زلال من خمر حلال

ويعم الجـلال طولها وعـــرضها.

في لحظة هياج غير عادية... ضج الشارع.. وتعالت الأصوات، والصراخ، فرأيت الكل يركض مسارعاً... أو يجري، صوب جانب المدينة الشرقي... ترك الكل ما كان ينوي فعله.. وقفز جارياً... حتى جليسي نهض بقفزة فرحة... وهو يقول **جات.. جات.. جات.. (يالله تقوم) !! كان لوقع يالله المخففة... هيجان في دواخلي..طغى على ما يدور في خارجها.**

omerelamin.com

قمت مرتعدا..! وتساءلت..؟ فوقع في سمعي أن **(الهور... جات)** ..ووجدت نفسي جاريا مع القوم، رجالا.. ونساء.. وصبياناً.. وصبايا.. وأطفالاً، إلى أن وصلت طرف المدينة الشرقي، فصعدت **(الردمية الترابية) بخفة...** ومن على ظهرها.. رأيت ما ر أيت... رأيت **(القاش)** يهدر بماء زاخر.. فائر.. فهدأت أنفاسي.. وانتابني شعور بالاستحسان.. والرضاء.. وحمدت الله أنّ **(الهور جات).**

omerelammas.com

خواطر...الحلقة الخامسة **الدكتور/عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

تحرك بنا السائق المتمرد... الذي أنستني السنوات اسمه.. ولم تنسني آثار معاناتي أثناء رحلتي معه... يتمدد الطريق الرملي المنبسط أمامه.. ويتلوى كما الأفعى... في انسياب سهل وممتع، **(ينحشر)** في ثنايا ذلك الإمتاع بين الفينة والأخرى... التوجس والخوف، فالمثل يقول:

(الضايق عضة الدبيب يخاف من جر الحبل)

لاسيما فجغرافية.. وتضاريس المنطقة التي نحن فيها، لم نألفها من قبل...يبدو أننا نسير في بيئة صحراوية أو شبه صحراوية.. تخلو تماما من الكائنات ذات الحركة الواسعة .. ويبدو لي أننا نحن.. أربعتنا.. هم الذين يمثلون الكائنات الحية في تلك المتاهات...

تداعبنا نسمات قاسية... هي أقرب للريح من الهواء العادي المتحرك.. ترشقنا ببعض من حبيبات الرمل المتطايرة، من خلال نوافذ العربة التي لم تغلق قط.. تحسباً لآثار تلك الدرجات العالية من الحرارة... حيث كان مقدمنا لتلك الديار في... **(عز الصيف)**، كما أنّ العربة.. مثلها ومثل الكثيرات من رفيقاتها في ذلك الزمان، لا تتمع بجهاز تبريد **(مكيف)...** فتنفسنا كان تنفساً خارجياً بحق وحقيقة...

العربة تسرع.. وإيقاع حديثنا يتسارع هو الآخر، فطرقنا.. وتطرقنا لكثير من المواقف، التي توحي بتداعي ذكريات طيبة.. ومثيرة.. وممتعة، لا سيما ونحن **(أولاد دفعة)...** تقاذفنا الحديث هنا وهناك.. وهو نفس ما كان يحدث لعربتنا إذ تقاذفها الطريق هنا وهناك...

وفي عمق تلك الصحراء رأينا عجباً**!** خضرة.. وأشجاراً ظليلة.. تتحيز مكانها، وحولها تبدو ملامح الحياة واضحة جلية ... تقف عندها بعض الدواب.. ومما أثار انتباهنا وجود (مواسير) وحنفيات... وماء **(ينقط)**، وعدد قليل من الناس... لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة... كلهم جلوس على الأرض...رحب بنا أولئك النفر أيما ترحيب..وعرفنا منهم أن تلك البقعة تدعى **(دولاب ياي).**

omerdammas.com

يخلو المكان تماما من كل شيء ما عدا غرفتين من **(الجالوص)** إحداهما صغيرة لا تتراوح مساحتها التسعة أمتار مربعة بالتقريب... تزينها **كشاشة (راكوبة)** من الجهة الشرقية...ذات شعبتين قصيرتين.. تحتها باب هين صنع من الصفيح ..لا تسمح **الكشاشة** باجتيازها... إلا بعد تقديم انحناءة الولاء والطاعة للغرفة ... حتى لأقصرنا... وذلك لقربها من الأرض، بغية الصمود في وجه رياح الخريف العاتية... والسوافي الصيفية المتربة... التي تقتلع كل شيء من أصوله، مثل الشجيرات الواهنة ...والأشجار المتفرقة **(المتوحدة)...** المبعثرة.. هنا وهناك، والتي تعيش شتاتاً بيناً جراء قسوة الطبيعة وسطوتها.

أما الغرفة الكبيرة فهي بمساحة أربعة وعشرين مترا مربعا تقريباً..وفي إجابة من الحاضرين عن ماهية الغرفتين أفادونا:

بأنّ الغرفة الصغيرة هي العيادة **(الشفخانة)..**

والغرفة الكبيرة هي المدرسة...

فقررنا أن نزور **الشفخانة والمدرسة...(قلة شغلة)**... فأشاروا لنا بالإيجاب وتحركنا نحوهما:

زيارتنا إلى الشفخانة:

وقفنا.. ثلاثتنا.. أمام باب **(الشفخانة)** المغلق... نتساءل فيما بيننا... أين المساعد الطبي؟ وأين المرضى؟...

جاءتنا الإجابة من شاب جاء يلهث.. يحمل بين جوانحه صفته الطبية، التي لم يشأ أن يرسمها على زيه الذي يرتدي.. أو على محياه .. دلف إلى باب الغرفة بخفة لفتح الباب، الذي أخذ وقتاً ليس بالقليل، مستعصياً على انزلاق **(الكيلون)** كي يفتح...

أدخلنا الواحد تلو الآخر في بهو الغرفة ذات الكنبة الصغيرة المتمددة... إلى جانب **(تربيزة)** وكرسي صغير ..وعدد من الزجاجات **(برطمانيات)** التي تحتوي على أدوية سائلة ... وكراتين مبعثرة لا ندري ما بداخلها..

تقدم صديقنا الدكتور ببعض الاستفسارات للمساعد الطبي... لم نعتن بمضامينها كثيراً، فهي لكلينا.. أنا والضابط، لم تجذبنا إليها لأن كلانا كان في وادٍ آخر ..تساءلنا فيما بيننا عن الضياع.. وعن المرض اللعين **(السل)..** والذي خلناه قابعاً داخل تلك العيادة.. وتدرجنا في تساؤلاتنا حتى وصلنا إلى الموت، الذي لم يكن منه بد ...ومما

omerelammas.com

أثار تساؤلنا كثيرا هو: **أين المرضى؟** ففي الجوار لا توجد مساكن.. أو أثر لحياة البشر ...وعلمنا أنهم يأتون للعيادة.. في الأوقات الضرورية، من الأودية المتناثرة في الأنحاء.

لا أدري بما خرج الدكتور من استفساراته... وما كان رأيه، كاختصاصي في الشأن الطبي؟..غير أني لمحته يهز رأسه يمنة ويسارا.. من غير حديث يثار.

زيارتنا إلى المدرسة:

دلفنا إلى داخل المدرسة... وهي تتمثل في تلك الغرفة الكبيرة، من غير باب يمكن أن يستعصى فتحه على المعلم، الذي رافقنا إلى الداخل... بكل احترام أهل الريف.. الذي لا تخطئه العين سلوكاً وتحدثاً، تتناثر الكلمات منه في سلاسة، رغم تلك **(اللكنة)** البجاوية الفوضوية... التي تستولي على أركان حديثه، تتمازج في عجينة واحدة مع العربية الدارجة...فلم يساور نفسي شك أبداً.. من أنها كانت ممتعة وجاذبة ... كان المعلم يرتدي **(عراقي وسروال أبتكة)...** لم يألفا التوادد أو التآخي مع الماء والصابون... وتحت القدمين حذاء بالي لم تتم صيانته قريباً ... وخُلال من الخشب مغروس في شعره الكثيف.

تتمدد الغرفة طوليا من الشمال للجنوب بها فتحتان ناحية الغرب تمثلان مدخلين من غير أبواب ..تتعلق على الجدار الجنوبي، وهو ضلع المستطيل الأصغر خشبة أو لنقل لوحة ...تمثل السبورة، فهي غير مطلية بلون مميز لها **(سادة بلون الخشب) ...**ومن ناحية الشرق وعند الزاوية الشمالية الشرقية توجد **(كفتيرة)**.. و**(حلة)** صغيرة .. و تلاثة **(لدايات)...** وبعض الأواني الصغيرة... مثل**: الكوز.. والكباية**..**وأدوات وأواني أخرى لا تثير الانتباه**...متناثرة دون ما أي ترتيب ..وعلى الحائط الشمالي غرست بعض الأعواد الصغيرة التي تشابه **(المساويك)** تعلّق بها **عراقي.. وتوب صغير.. وسروال أبتكة**.. أما من الجهة الشرقية، فكان يتكئ **(عنقريب)** صغير، نسج من الحبال...ومما بدا لنا أن هذه الغرفة... وعلاوة على أنها تمثل المدرسة كلها... فهي تعتبر سكن المعلم، الوحيد بها، وحاوية أغراضه...فهو الناظر والمعلم والعامل.

على أرضية الغرفة توجد حفر صغيرة متراصة ... غير متباعدة عن بعضها، **(حوالي ١٦حفرة)** في مجملها .. علمنا أن التلاميذ يجلسون على حوافها، بعد أن يدسوا بأرجلهم في الحفرة فتصبح الجلسة تعليمية... تعلمية بالكامل ...الكل متجه ناحية السبورة والمعلم **(المتحكر)** كما يبدو لي **...**واضعاً أدواته التعليمية .. إن وجدت .. على فخذيه.

مما أفادنا به المعلم.. أن التلاميذ يمثلون كل الصفوف من الأول وحتى السادس.. وعلى اختلاف أعمارهم...فهم يتقاطرون على المدرسة من كل فج عميق و ..**(بالمزاج كمان)...**وينصرفون إلى داخل أوديتهم ليتركوه وحيدا ليصبح الجو **(جو عبادة وبس)...** يالك من فدائي يا أخي المعلم .. فأنا من مقامي هذا أشهد **(وبدون كلام)..." إنك "**... **(زول جنة ساكت).**

في خارج المدرسة **(لقينا شيخ المنطقة جا)**... وهو راكب على ظهر حماره، رجل كبير في عمره وفي جسمه ... متلفعاً بنفس التوب **(البنقالي)**، الذي شهدته من قبل في المقهى الطوكراوي .. يميزه صوت جهوري... أحسن الرجل ترحابنا وقد عرف أننا على عجل ... فأهدانا **(ديكاً)** كان يحمله... وقال في نبرة يحفها الكرم وحسن الضيافة:

(دا غداكم) ورمى به **(مكتفاً)** في صندوق العربة، شكرناه .. وأحسنا وداعه .. كما أحسن ترحابنا .. وتيممنا بعد ذلك ناحية الشرق... نطوي المسافات في سبيل الوصول إلى مجهول آخر.

omerelammas.com

أمسيات في قادم قفريت

نحن الآن وبرفقتنا مفتش الشفخانات.. في المنطقة، أصبحنا على مشارف **(مرافيت)...**قرية وادعة.. كالتها السافيات بفيئها من الرمل الناعم... الذي علا حيطان منازلها.. وعانق فتحات التهوية **(الشبابيك)**، بكل حائط يواجه جهة الشمال والشرق ... حيث تجري الرياح الترابية المتعالية.. في اتجاه الجنوب.. فيصبح مرأى الرمال ك.. **(القيزان)**، أو كالهضاب الرملية المسنودة على **(الحيط)** فتتشابه بذلك مع رمال امرئ القيس **(العقنقل).**

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا

بطن خبت ذي حقاف عقنقل..

تفتح معظم أبواب بيوت القرية ناحية الجنوب.. تقريباً، تفادياً لآثار تلك الرياح القاسية... التي مسحت الأرض بقسوة.. فلم تترك عليها إلا بعضاً من سيقان وفريعات، غادرتها أوراقها الصحراوية.. الصغيرة ،المتحورة، فأصبحت شجيرات مبعثرة... لا تقي من برد ولا حر.

من حسن حظنا... ونحن في نهار ذلك اليوم الصيفي... لم تكن لتلك الرياح وجود، بل كان الجو ساكناً وحارقا ... وكان **(يوم سوق)** ..تجمع في ساحة السوق نفر مشتت وقليل.. من البائعين والشارين، من أصحاب **الحمير.. والماعز.. والتيوس.. والدجاج...**هذا ما رأيته على عجل.

نحن بسيارتنا نمضي.. نتوق للوصول إلى هدف يحلو للدكتور الوصول إليه، حيث يمثل ذلك الهدف مركزاً طبياً كبيراً في المنطقة، ويشمل أيضاً إلى جانب ذلك، ميناءً بحرياً... يطيب لرفيقنا الضابط البحري... **(خريج الكلية البحرية اليوغسلافية)** زيارته، ضمن فعاليات تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر..أما أنا فمستمتع بكل الذي يجري...إذ أني في رحلة سياحية.. واستكشافية.. والتي آلت في بعض مساراتها، إلى نزهة طبية.. وعسكرية.. في ذات الوقت بالنسبة لي.

دخلنا **(عقيق)** بفتح العين والقاف.. كالفاتحين...فهي قرية صغيرة بلقع... يباب.. جرداء، ومما أوحى به مظهرها لنا ... بأن ليس للزراعة ونشاطاتها موقعاً يذكر.. فيما يحيط بها من أراضي.. فالقرية واهنة..! تستلقي في إعياء تام، على ساحل

omerdammas.com

البحر الأحمر الغربي، فأرضها مالحة.. وفائرة بملحها **(المشتت)**، الذي يكسو ساحاتها بياضاً عشوائياً.. مبعثراً.. يتلألأ ويتداخل .. مع تلك الأشعة الضوئية، التي تنزلق عليها من شمس ذلك الصيف، القاسية **(الفاقعة)** ..

توجه بنا الدكتور مباشرة إلى المتشفى **(الشفخانة)**... حيث أحاطت به حشود من أصحاب الحاجة.. للاستشفاء، شمل الرجال.. والنساء.. والكبار.. والصغار والأطفال.. الذين تباينت حالاتهم المرضية، والتي تناثرت.. وانتشرت خلال خلاياهم الضامرة، تلك التي تشكو من غير إفصاح للطبيب المداوي... فهم كانوا على علم تام بمقدمه الميمون.

لقد جاءني شعور ساعتها، أن أنسرق... وأدخل الحلة من جانب خفي.. حتى يتسنى لي أن أتلمس آثار من بقوا بداخل منازلها... فلعلهم لم يسمعوا بمقدم الدكتور... فالكل كان مريضاً يشكو من علة.. أو من سقم دفين.

نسبة لكبر عدد المراجعين من المرضى... فقد وقف الدكتور على بعض الحالات فقط...كانت ممارسة طبية نظرية **(وبس)** لا أدوية.. ولا سرائر.. ولا غرف للغيار بالمعنى ولا...ولا...ولا...

إندس الدكتور في العربة خلسة وقلت حينها :

لمن تركت هؤلاء يا دكتور؟

فقال: تركتهم لله.

لم ينل المرضى منا.. إلا ذلك الغبار الذي علا في السماء، جراء فعل السائق الذي **(داس البنزين بقوة لى الصاجة)...** فكأنه شارد من أمر جلل.. فتذكرت **(الفيات)** وتذكرت **(سرور)** وقول (**العبادي**):

شقّ حشا الطريق واتيمن الحلال

زفنو الكلاب ما نالنّ إلاّ علال.

تباعدنا عن الحلة... ولم يتباعد ما كان يحشو دواخلنا.. بالذي يعتلكها.. ويموج فيها، صاخباً له أوار حارق.. الهزال، المرض، الشكوى، ضيق ذات اليد، الانكسار، الرجاء، التوق إلى الحياة، وهاجس الموت... الذي لم يفتأ يحلق بالأرجاء..لهفي عليك يا..**(عقيق) !** فقد أشعلت بداخلي ألوانا من ضريم يشتد، ما بين الفينة والأخرى، وجددت فيّ ألماً تجاوزت ذكراه المؤرقة... فشعرت أني مسجون داخل وجدان هؤلاء التائهين... أحوم في دواخلهم، فأنا أحدهم لا شك في ذلك..! فقد

omerelamin.com

عاودني الآن فقط.. أنّ **(طايوقي)**، يحتاج لطبيب غير الذي أنا برفقته... فتضاعف الألم النفسي.. وبدت الشكوى تدانيني.. أشكو لنفسي فحسب..! فأنا ضائع مع أولئك الذين ينتظرون الأمل، في أزقة **(عقيق)** الضيقة... ويتغلبون على آلامهم بالصبر.. وبالتأسي...

غير أني نبشت كل السُتُر.. أفتش في جدية متناهية.. عن ذلك الصبر المزعوم، فلم أحظ بالظفر به... شعرت أن جسمي **(ساح) ف..(دخت)**، وتراخت أوصالي.. وهوى جسدي في نفس موضعه، بمقعد العربة، ذلك الذي فارقته واثباً ساعة فقدت نظارتي، متكأها المألوف على عمود أنفي **(الأفطس)..**

عند مدخل الميناء البحري لا أحد...هناك، أما بداخله فقد بدا لنواظرنا.. نفر من العسكر البحريين... الذين بادروا بالتحية العسكرية... فسعادة **العقيد** منهم وإليهم.. وأعلى رتبة في هذا اللقاء.. وقد شملتنا التحية أنا وصاحبي الدكتور.. فأنسانا ذلك الفعل بعضاً من معاناتنا... **(يعني شعرنا بالعظمة..واتفشخرنا شوية)..** .

ظهر أمامي أحد العساكر **(عريف)**.. ابتسم لي وبادلته الابتسامة.. التي تدلل على معرفة سابقة بيننا، فقد التقيت به كثيراً عند زياراتي المتكررة لسعادة العقيد، في القيادة البحرية ببورتسودان ... غير أن اسمه **(طار علي)**، وأظنه دخل في نفس المحنة... هنا وفي هذا المنأى ليست للأسماء **(حوبة)**.. فيكفيني ما جنيت.

دخل صاحبي الضابط في حكايا عسكرية متبادلة... **(ما رخيت ليها إضاني كتير)...** لكن ما همني وجدته.. فالميناء كان تقليدياً، يتكون من **(رصيف)** أو **(رصيفين)**، والرصيف هو المرسى، فهذا الميناء ينقصه كل شيء.. فهو ميناء مكشوف تماما، يخلو من السفن عند زيارتنا تلك... كانت حرارة الوداع بمثل ما كانت حرارة اللقاء ...ودار بذهني الكثير.. والكثير المثير...**ف.. (لميت لساني علي).**

نحن الآن على مشارف منطقة عسكرية أخرى، في الحدود السودانية الإثيوبية.. دخلنا الحامية حسب أوامر **العقيد** للسائق، الذي لم ينبس ببنت شفة.. منذ أن غادرنا طوكر... سور الحامية مهتك ليس له بوابة رئيسة نلج من خلالها... **(سكّانا)** أحد العساكر المسلحين.. من مسافة بعيدة، ولما تعرف على هويتنا سكنت أنفاسه قليلا.. وأشار إلى مكتب القيادة.. الذي وجدنا به ملازم أول **(دبورتين)** فحيا وأحسن رفدنا، وكان هناك حوار عسكري لم يثر انتباهي كثيرا.. غير التقاط خبرين مأساويين فقط **الأول:**

أن الحامية لاتملك إلا لوري واحد **(سفنجة)** .. والآن هو في مهمة جلب المؤن لأفراد الحامية من **(طوكر)**.

والثاني:

أنهم يطاردون المتجاوزين للحدود.. عن طريق استئجار بعض الجمال... لمحاولة منعهم الدخول للأراضي السودانية..

غادرت الحامية ورفقائي ودعوت للقوة العسكرية.. ولخفر الحدود هناك، في سري، خير الدعاء، وعرفت من هنا فقط... أن بورتسودان **(مليانة حبش لى شنو!)**.

omerelammas.com

خواطر... الحلقة السابعة **الدكتور/عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

لقد سعدت أيما سعادة.. وأنا أجوب ربوع شرقنا الحبيب، لا سيما فهي المرة الأولى التي أطوّف بها... وأنا في غاية النشوة.. والمتعة، فقد نصّبت نفسي سائحاً.. ومستكشفاً.. لما غاب عني، وعن الكثيرين غيري، من تراث.. ومن معالم.. ومن معارف، ومما توافر لدي وزاد من إمتاعي... أنني كنت في سن لا يدانيني الخور ولا التخاذل فيه، وزاد من ذلك.. رفقتي لصاحبي **(أولاد الدفعة)**، وفوق كل ذلك ما لقيته من التقدير والاحترام... الذين طُوّقنا بهما كثيرا... وهما سمة أهل السودان جميعاً وديدنهم.. عند وصولك لأي طرف من الأطراف، في هذا الوطن **(المنشر)...**

سبقت سيارتُنا أفكارنا وتطلعاتنا، ودارت عجلاتها كما **(الخذروف)** يتداعى في دورانه، ينهش الأرض بأنياب حادة وممزقة... لنجد أنفسنا وقد انغمسنا داخل أزقة مدينة **(قرورة)** السودانية ...أما **(الخذروف)** فقد جاء ذكره في القصيدة:

درير كخذروف الوليد أمره

تتابع كفيه بخيط موصل

ذلك كناية عن السرعة الخارقة، التي كان السائق يعالج بها المسافات المتناثرة أمامه... ويكمم بها أفواهنا، المدعومة من دواخلنا... كي تنثر بعض الكلام الذي تأبّى علينا كثيرا... لانشغالنا بمداعبة مقابض مقاعدنا... بطريقة لا شعورية، ولا أدري أن كان ذلك خوفاً على أنفسنا... أم خوفا على المقاعد، كي لا تغادر مكانها...

بحمد الله دخلنا ما أسميناها نحن مدينة، مقارنة بالمواقع التي سبقت ... فهنا سوق صغير.. يفترش باعته الأرض، لعرض بضائعهم، أما كبار الباعة فيستخدمون بعض **(ترابيز)** الخشب المتهالكة... وقد تناثرت هنا وهناك بعض من **(الكناتين)** الصغيرة... شيد بعضها من القش.. وبعضها من الطين.. وبعضها من الزنك، فهي مظلمة بالداخل، إلا ما قد يتغشاها من ضوء الشمس المبعثر... كما تناثرت أيضا، في المكان جماعات من مرتديي **(السديري)... الذين** يجوبون المسافات المقيدة.. ما بين هنا.. وهناك، وقفت أثناء تجوالي على... عدد من الجمال، الباركة.. والمعز

omerelammas.com

التي تتجول حرة، وهي مشغولة بالتفتيش عن شيء ما... يقبع على سطح تلك المساحات، والتي لا توحي للشخص بأنها ستظفر بشيء، من ذلك **(المدسوس)** على تراب السطح أو ما بداخله ...

جلسنا قليلاً **(نتونس)** من غير **(مشغلة)...** غير التفكر والأسئلة، التي تتداعى منا من وقت لآخر، على المفتش ورفقائه الذين انضموا إلينا في **(قرورة)..**.تناولنا عددا من فناجين الجبنة ...من يد **(فنجرية... مخلوطة..تسر الناظرين)**... لا يخطئها الحسن أبداً، رغم بداوتها...فتداخل معي سيد العارفين الشاعر العبادي ثانية:

أنزل يا صديق شوف يد القدرة

وشوف حسن البداوة الما لمس بدرة.

غير أني لم أتحقق إن كانت الجبنة **(أداركلوب)** أم لا ...

تباينت اللهجات هنا واختلفت، شيئاً فشيئاً، وتبدلت حال الكلمة من **(البجاوية)** الصرفة، إلى **(البني عامراوية)** القحة، في الغالب... كما تفاوتت سمات الوجوه وخطوطها.. وأشكال الناس عامة... وتفاوتت أيضاً ألوان وتفصيلات الأزياء التي نشاهدها، فالقبائل هنا قبائل **(حدودية)** مشكّلة التكوين... حتى أنا لحظنا بعضاً من الوجوه... التي تحمل ملامح للسحنات الحبشية، **(فقد تزاوج القوم هنا)** وتكاثروا**...** ونتج عن ذلك ما نتج.

منذ وقت ليس بالقصير... وفي مطلع ستينات القرن الماضي، تعلقت نفسي بالأحباش... وجدانيا، وذلك منذ أن غزت الفرق الأثيوبية الغنائية.. الفلكلورية الراقصة.. المسرح القومي السوداني بأم درمان، أمثال: **(فرقة الإمبراطور هيلاسلاسي الأول..امبراطور أثيوبيا آنذاك)**... فقد مثلت نقلة تراثية.. ثقافية بالمعنى، فهي من أميز الفرق التي ساعدت في نقل التراث الأثيوبي، إلى خارج البلاد ...مما قادني كي أتساءل عن **(قرورة الحبشية)،** التي سمعت عنها الكثير في وقت مضى.

لقد كانت على مرمى حجر من مكان جلوسنا... يفصل بيننا وبينها **(ذلك الجبل)،** الذي أشاروا إليه...عادة ما يتسلل ساكنوها إلى هنا حين تغمض ... أو تغفل عين الرقابة .. وهو نفس ما يحدث هنا في المقابل و.. **(أصبح الناس أهل)..**كل ذلك كان يتم قبل انفصال ارتريا عن الوطن الأم... بأكثر من عشر سنوات مضت...

لاحظت وجود بعض أصناف من بضائع حبشية.. تباع مثل السجاير، والكبريت، وأشياء خفيفة... فاشتريت منها كتراثيات وليس للاستعمال... وظللت أتبختر

بحميمية زائدة وانتماء مفرط... في تلك الأنحاء، وشعرت أني جديد.. **و..(صاحب حق كمان)**، أرقب **(اللكنات)** اللغوية المحببة... والأزياء التي تمثل وجهاً جديدا، لم أكن قد ألفته، من قبل... والمباني البسيطة.. متعددة الأشكال.. إلى جانب الأسلحة البيضاء المحمولة.. التي لم أتهيبها كثيرا بل اقتنيت منها خنجراً.

نادى بنا الحادي يوشوشنا... وينثر في الأسماع بشرا... أن سيكون المبيت في أرض غير التي عبرنا.. إلى أرض سندخلها ليلاً... **(لأن الجماعة منتزرين بالعشا)** ..سعدت كثيراً أن تغيرت كلمة **(منتظرين)**، إلى كلمة **(منتزرين)...** فذقت طعم حلاوتها، يسري متسللاً بين أوصالي... التي خالطتها **(اللطافة)**، من كل منحى، فارتميت على إثرها في ذات المقعد من السيارة، ولم أشعر بأني **(دايخ)** بل **(ثمل)** بعض الشيء.

omerelammas.com

خواطر...الحلقة الثامنة **الدكتور/عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

كان الليل قد أرخى سدوله... وعم الظلام أرجاء المكان، فكان ليلاً دامساً.. يدس كل ما هو مفزع، ومخيف، بين طياته. عزاؤنا كان تكدس النجوم.. والأقمار.. والكواكب، وتناثرها العشوائي ...كما يبدو لنا، من فوقنا... والتي وسعت كل السماء الدنيا... فكان بين كل نجمة وأخرى نجمة ثالثة، تتفاوت الأنجم في حجومها... وفي تلألئها، فمنها الصغير الغائر... الذي يشعرك بالفرقة والبعاد... ومنها القريب الذي يأتيك مفردا ذراعية... ليتلقاك بشوق باسم.

لا أصوات تتهافت علينا... غير أزيز ماكينة سيارتنا، التي لا تزال تحت قبضة ذلك السائق... الذي لا يخشى المجهول أبداً، فهو دائم الاندفاع بها إلى الأمام... إنه رجل فدائي مقدام، لا تخالطه الوساوس... ولا تدنو منه الخشية... المسورة بالخوف، أو التوقعات الأسوأ.

تساءلت في سري... إلى أين يا رجل المهمات الصعبة؟ ترادف سؤالي مع استفسارات أخرى... **(هل إنت عارف مودينا وين؟ ولا مسطح زينا؟)...** مقاعد العربة كلها مسكونة بنا... ولكن لا يرى أحدنا الآخر **ف..(النور قاطع بى جوة) ...** لم يكن هناك أي مجال **(للونسة)** ولا **للمناصحة**... ولا لقراءة القرآن... أو الأدعية المنجية... لكني ما بين الفينة والأخرى أسمع **(فحيحا ... ووحيحاً ... وبعض القنتات الكتامية)** وبعضاً من آهات، أصرت على مغادرة صدورنا الثكلى ... من غير هدى أو دليل.

تمزقت لدينا... جميعاً... وتقطعت كل أواصر الصبر، والشجاعة، فبتنا في **(كف عفريت... وسلمنا أمرنا لله)...** ولو أنا كنا لا نرغب في مغادرة الحياة... بهذه السرعة.

تخللت مسيرتنا قفزات... بين انثناءات تلك الرمال الممتدة... وبعضاً من الحجارة الصغيرة، وبعضاً من بقايا الشجيرات الجبلية، ونحن نندفع نحو الهدف الجديد.

omerelammas.com

لاحظت مما قد يتيحه لنا نور العربة الأمامي، أننا لا نسلك طريقاً معبدةً... أو مطروقةً... وسائقنا الكريم، لا يملك **(بوصلة)** يهتدي بها في رسم الاتجاهات الصحيحة لمساره... لكنه أنبأنا بصوته الخافت، والذي كان مسموعاً لدينا جميعاً، نسبة لذلك الهدوء... الذي كمم أفواهنا، وأوقف أنفاسنا:

(والله أنا البلد دا تأرفو كويس.. ما تهافوا دي بلدنا)... وأسررت لنفسي **(إن شالله بلدكم تطير).** لا خيار أمامنا غير الذي نحن فيه... أن نتقدم ولا **(نبيت القوى في الخلا... وهناك الجماعة منتزرين بالعشا)...**

بدأنا رحلتنا منذ الفجر من **(طوكر)**... ولا زلنا نسير حتى طوقنا الليل وأسبل أستاره علينا... ونحن لا ندري في أي منتأى نهيم... ولا إلى أي منقلب نروم... فلا زلنا نسير... والهم إلى جانبنا، يؤرقنا ويقلق منامنا... والأسوأ دائماً... يقودنا بلا توقف... ونحن لا نزال في حالة صمت دفين...حتى المفتش ورفيقاه... لم يبخلوا علينا بمد حبال الصمت... فلعلهم كانوا يعرفون كل ما تخبئه هذه المتاهات... ولكن نحن ثلاثتنا... هم وليس غيرهم، الذين يمتلكون مفتاح سبر الأغوار... والوصول إلى المعرفة عبر سؤال واحد فقط والذي قد يكون :

أين نحن؟ ولكن من الذي يلقي هذا السؤال العجيب... الذي يمكن أن نفك به الطلاسم.

(أيوة زهرت) يقصد **(أيوة ظهرت)...** قالها السائق وهو يتمايل في مقعده ويتقافز... **(داك دو المؤسكر)**، يعني **(ضوء المعسكر)** ..تذكير،، وتأنيث.. وقلب الحروف.. كانت محببة لي تماماً، في بادئ الأمر، إلا أني فهمتها الآن من غير تركيز فللضرورة أحكام.

وصلنا... ونحن في **(نص الخلا)...** إلى ما كنا نبغي، (رتائن... وفوانيس... وبطاريات... تتبارى في الدفع بأنوارها المميزة لها، ونفر قليل من الرجال الظرفاء... المهندمين، كانوا في استقبالنا... في خضم من الترحاب النابع من أصوات متباينة... منها الغليظ.. ومنها الضعيف.. ومن بينها الهامس.. وضمات رجولية.. وعناق محموم.. من بعضهم، وتكلة يد على الكتف من آخرين... نفضت عنا الغبار نسبياً.

أجلسونا على سرائر تحت مظلة محكمة البناء من الزنك الخالص، وبعض الجدران الثابتة من الحجارة... فهي متسعة وأنيقة... تدعو الواحد منا للاسترخاء أثناء مرور تلك النسمات الباردة... التي تنساب حرة... خلال تلك الفناءات الخلوية، التي لا تحدها حدود أو جدران ..

omerelamin.com

شربنا الماء والتففنا حول مأدبة العشاء... بعد أن أخذنا قسطاً من الراحة، **(تونسنا)** كثيرا...وذلك بعد سؤالي التقليدي الذي يسبقني دائماً: المحل دا وين؟ وتأتي الإجابة من عدة جهات.. وكأنها إجابة جماعية:

دا معسكر **(قادم قفريت) ..**

تركت القوم يتسامرون... ويحكون... ونمت.

ولكن لا أذكر ...من فرط المعاناة... أن تداخلت في **(نومتي)** تلك...

رؤى **(من نوع أحلامكم أعلامكم)** أو أضغاث أحلام تذهب هباءً.

omerelammas.com

خواطر ...الحلقة التاسعة **الدكتور/عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

تركت سريري فجراً... كي أستقبل صبحاً جديداً... أبدأه بصلاة الفجر، وتحركت في سبيل أداء التحضيرات اللازمة للصلاة، من وضوء... وما يسبقه من أفعال، فإذا بأحد المستقبلين الظرفاء **(أصحاب المحل)**، يستوقفني... وعلمت منه أنه لا توجد دورات للمياه لديهم... فالخلاء هو المكان المباح.. لكل النشاطات الحياتية اليومية.

أهداني بطارية **(طورش)..**وحذرني من إطفائها مهما كان الأمر...وكان سبب ذلك وكما قال لي:

(المرفئين كتير هنا... لكنه يخاف لما يشوف الدو)..

أدركت الآن أني في **(وادي الوحوش)..** إسم ابتكرته الآن **!** فهاجمتني على التو جملة مفيدة تقول **(يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي)...** وغار الماء على الفور من كل خلايا جسمي... إلى أين ..لا أدري، فآثرت البقاء بموضعي.. على الدخول من باب المهالك، **(وزي)** ما قال المصري... **(آل أيه ... آل مرفعين آل)..** الذي قد حزا حزوه الشاعر المهندس حين **أنشد:**

وقل يا سماء النيل ويحك أقلعي

ويا أرض بالشم الرواسخ ميدي

وغيضي عيون الماء أو فتفجري

وإن استطعت المزيد فزيدي

(ترجلت) وتوشحت رداء الرجولة...أمام الغريب، واقتحمت الوادي بالضرورة... فكشرت أمام عيني ذئآب كاسرة... جلست أمام أحدها وتبينته ملياً... فإذا أنا أحتمي بشجيرة لا غير...لكنها رمت بي في مزالق... ومتاهات الفناء ...رجعت إلى المعسكر **(راجل..راجل)** ... **(أتنحنح)..** بلا سبب يذكر، وأهمهم.. بما لا أدرك كنهه، فما هي إلا أصوات تداخلت.. ما بين الشهيق والزفير... حمدت الله كثيراً أني **(بيضت وجهي صاحبي)**... أمام رجال تلك المنطقة، بتلك **(الرجالة)** المكتسبة.

omerelamma.com

ضاءت الأرض بنور ربها ... فشمس ذاك الصباح كانت ساطعة بقوة، تدانت على أثرها وقربت... كل ألوان الحجارة .. والحصى، أمام أعيننا، وتقافزت شجيرات الوادي في كل موضع... متبعثرة باتساع ذلك الخلاء المنفرد..لكن لا أثر للذئاب و لا للأشباح... لا هنا ولا هناك..

أشرقت نفوسنا بما أبدته من ألق على أسارير وجوهنا ... التي لم تعد واهنة كما كانت ليلة البارحة، فها نحن نرتشف من كؤوس زجاجية **(كبايات)** بعضاً من **(جغم)** الشاي الدافئة ... التي تخللتها بعض الحكاوي الصباحية المتناثرة... من أفواه الحاضرين، تتداعى من بين شفاه المفتش، والمساعدين الطبيين، والممرضين... والتي كان جلها يحوّم في المجال الطبي.

كان مكان جلوسنا ذلك يمثل جانباً طرفياً... من معسكر كبير، تلاصقت مبانيه الهشة ... من وراء ظهورنا، مد البصر، وعليه.. فنحن الآن نقبع في مباني إدارة المعسكر، الذي يأوي، كما أفادنا العاملون هنا، حوالي ثلاثة آلاف لاجئ إرتري... معظمهم من أفراد القبائل الحدودية الإرترية، جاءت بهم ظروف الحرب... التي لا زالت مستعرة... إلى هنا، مرغمين، و كما نما إلي علمي أيضاً... أن ثلاثة أرباع سكان هذا المعسكر، مصابون بمرض ذات الرئة **(السل)** ...فعمدت لتغيير المسمى السابق **(وادي الوحوش)** إلى **(وادي السل)** ...تشهدت كثيراً، وأردفت على الشهادة أخريات منها، مع **(هزة راس منكسة)** يميناً ويساراً ..فقلت لنفسي **(الجابك هنا شنو؟)...**

بدأت أستفسر عن مرض **(السل)...**الذي أودى بحياة الكثيرين من قمم تراثنا السوداني كالشاعر الفنان خليل فرح (١٨٩٤ – ١٩٣٢م) والشاعر المبدع مصطفى بطران (١٩٠٤-١٩٣٩م) وهما في ريعان الشباب..لننظر كيف ذكر الخليل وطنه، وشكى حاله، وقد استفحل المرض واستشرى... وهو بعيد عن وطنه، في القاهرة :

يا دهـــر أهـــوالك تـــــــسارق

فيهـا كـم كـم شـــابت مـــفارق

مــا علــينا الفـــات كـلـه فـارق

رقــنا ولا نعـــيد المـــــلام

مــن فـــتيح للخـــور للمــغالق

من علايل أب روف للمزالق

قدلة يا مولاي حافي حـــالق

في الطريق ألشاقي الترام

لقد شاء له الله أن ينتقل للخرطوم... حيث لزم سرير المرض، بمستشفى النهر...إلى أن فاضت روحه الطاهرة لبارئها.

ولننظر أيضاً، كيف وصف **(بطران)** حاله... وهو يرزح تحت سياط المرض اللعين، في مستشفى النهر بالخرطوم:

نسمـــــــــــة الأسحـــــــــــــــار

ليلـــــي طـــــــال هـــــــــــــبي

أنـــا مساهـــر ونومـــــــــي مـــــــتخبي

انتحـــــــــل جسمــــــــي والمحـــال طـــبي

مـــصدره الزهـــرة الفـي نواحـي سهـــيل

كثير من أسئلتي كانت تنصب في طرق العدوى ... فوعظنا الطبيب كثيراً.. وأشار إلى أنّ العدوى تنتقل بالطريقة المباشرة من (التفاف)... وأسهب في حديثه الذي شمل ما نعرفه نحن دارسو علوم الأحياء... أو أنصاف الأطباء **(كما يدعوننا)**... وشمل ما لا نعرفه ف ..**(شحننا)** بالثقة.. ودفع بنا نحو الفضول و **(الشمشرة).**

بدأت أسابق الدقائق والثواني السائرات تبخترا... نحو وقت الانطلاق والدخول إلى أرض المعسكر المنكوب، علّي أظفر بالجديد المثير ... وأتصافح وأولئك الجموع من الأحباش، الذين أتوق للاحتكاك بهم عن قرب، نتيجة حبي لهم، فجال بمخيلتي الكثير مما أورثتني له الأيام الماضيات... و نوافح الذكريات الأول ... فصارعتني آمالي المتطلعة... كي أفتت زوايا ذلك المجتمع الإفريقي...القابع في ذلك القرن من القارة السمراء..

سألت أخي دكتور خلف الله... إن كانت هنالك أي وسائل للوقاية يمكننا استخدامها كالكمامات مثلاً... فأشار أنها لا تتوافر حتى للعاملين هنا، لكن **(ما في حاجة !!! نتوكل على الله... ونشوف احتياجات هؤلاء المساكين).**

بدأت أكتب كل كبيرة وكل صغيرة... منذ تلك اللحظة، وما كنت أحسب أني سأحتاجها في مثل هذا اليوم... وأناجيكم من خلالها، وقد ولى من العمر أكثر من ثلاثين عاماً، اندثرت فيما بين الفتات.. وأكوام المتاهات الدنيوية، في ما خلفه زخم الحياة المتكدس.. على ظهور الأبرياء..الأوفياء.

ها نحن اليوم ننفض غبار الماضي... وندس ديباج الحداثة... الذي لم يظفر بالأرض المذللة... ولا بالسماء الصافية... للنماء، سندخل أرض **(قادم قفريت)** ونحن متوكلون على الله.

omerelammas.com

خواطر... الحلقة العاشرة **الدكتور/ عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

أمامي الآن مجموعة كبيرة من **(العشش)**... المترامية، مد البصر، وأنا أقف أمام المدخل الشرقي للمعسكر... الذي لا تحده حدود أو تحيط به أسيجة... أو أشجار، بل هو عبارة عن تمدد عشوائي... للمئات من **(الرواكيب)**، التي استعان اللاجئون على بنائها... بما توافر لديهم من الأعواد صغيرة الأحجام، التي تنضوي تحت قائمة ما يعرف **ب..(المطارق)**، لأنها ضعيفة... ومتجردة من كل ما قد يتعلقها من أشواك أو أوراق، فهي طويلة... قطعت من أشجار.. وشجيرات، نفس ذلك الوادي القاحل، ولربما استعان القائمون على الأمر، باستجلاب **(عيدان)** أكثر سمكاً وغلظة، من مكان آخر... يقبع في أودية تلك الجبال المتسلسلة.. المترادفة، وذلك لاستخدامها كدعامة قوية لتلك **(الرواكيب)** ...

تُغطى معظم أسطح.. وجوانب هذه **(الرواكيب)**، بقطع من **(الخيش)...** أو قطع من قماش بالي... أو بعض الأغصان الرفيعة، وهي في مجمل القول لا تقي من برد ولا حر... فهي لا تستجلب ظلاً واقياً...من تلك الأشعة الشمسية الثاقبة. ولا تتسع **(الراكوبة)** التي شيدت في غالب الأمر على شكل كروي ... والتي لا يتراوح قطرها لأكثر من ثلاثة أمتار... لا تتسع لأكثر من شخصين أو ثلاثة ...وهي تمثل المأوى المخصص لكل أسرة... فهيهات ليس للاجئين من قرار أو ديار... فهم دائماً يرددون قول **السياب:**

سنموت لا نخلف بعدنا حتى قبور...

ماذا نخط على شواهدها؟

أكانوا لاجئين؟

تساءلت أناجي نفسي الثكلى... ألم يُصب هؤلاء القوم بداء حب التملك.. لأغراض الحياة العامة، كالمسكن... أو ما يتعلق بضرورات الحياة، مثلنا، في قرانا.. ومثل كثير غيرنا من ساكني القصور، حيث يتوافر الهواء الطلق... والماء السلسبيل... ولقمة العيش الهانئة... وتبادل الكلمات.. والجمل المنغمة، التي تدعمها روافد الحضارة... وما يسمى بالرقي... مثل : **(بابا.. وبابي.. وماما.. ومامي)**، أولئك الذين تتمدد ساعات نومهم لأكثر من الطبيعي... الذي يتداخل وساعات العمل والإنتاج...لا أظن أن هؤلاء يدركون من الأشياء إلا معاني التشرد... والمعاناة... والضياع... ومقولة: **(متى الرجوع... إلى الديار؟).**

omerelamas.com

جالست رجلاً عجوزاً، متهالكاً... يمنح الأرض مؤخرته... وركبتاه تعلوان هامته... بقليل، فهو واهن .. مسلوب اللحم والشحم ..عيناه غائرتان.. وأوردة شاحبة متعرجة.. تتطاير من على ساعديه، ومن غير صوت يعلو... فهو يشكو الضياع، الذي لا يعرف ولا يدرك من المعاني... إلا الفناء، الذي لا يفتأ يدور من حوله متربصاً...

كان الرجل يكح **(يقح)..** ما بين الفينة والأخرى... عبر زفير هامس.. أظنه لا يقوى لأكثر من ذلك ... كانت تجلس إلى جانبة.. زوجته العجوز البالية، التي لا أشك أنها كانت يوماً ما... تزف إلى عريسها، وهي تتراقص، ومن حولها صويحبات لها يزغردن ... أو يتصايحن في حبور بائن ...يتراقصن مثلما كن يفعلن على خشبة المسرح القومي بأم درمان ...في وقت مضى، ولكن هيهات..هيهات.

لقد تطايرت معظم قطع **الخيش،** و**القماش** القديم المتهالك... وأصبحت **(الراكوبة)** الكروية .. مجرد **(حاحاية)**، أبدت فشلها تماماً... كي تقوم بمهامها التي أسندت إليها، وهي المأوى الآمن.. كان ينام أمام العجوزين إناء من (**الطلس) (صحين)...** يغطيه من الخارج طلاء **(طلسي)** بلون أبيض **(مظلت)**... ومن الداخل يكسوه لون أبيض أيضا... مورد بلون أحمر، وهو أيضاً **(مظلت)...** لم أتمكن من رؤية قاع **(الصحين)**، نسبة لوجود قطع **(كاكية)** اللون من الخبز... عبارة عن **(قراصة)** صنعت من دقيق **(الفتريتة)...** فهي **(ملبكة)** وباردة... من غير غطاء، أخذ الذباب مجلسا واسعاً منها **(يطير ويرك على كيفه بى مزاج) وأحيانا يحلق مرحاً من حولها...** والرجل لا يهتم ولا يستطيع أن يقوم بعملية **(المحاحاة)...**

في سؤال آخر أفادني ذلك اللاجئ العجوز... أنّ هذه الوجبة العارية إلا من النشا، تستمر تتداعب معهم طيلة اليوم... فإن اشتهيا شيئاً منها تناولاه... وإلا ستبقى مكانها حتى الغد...

كنا نتناجى أنا و ذلك الرجل من خلال: لغتي العربية المطوّعة والمبسطة كي يفهمها... ولهجته **(الملكونة)** والمفهومة لدي تماماً... غير أن صوته كان يتأرجح ما بين الوضوح والزوال...

بينا نحن كذلك... كان أزيز الطائرات من فوق رؤوسنا يعلو... ودوي القذائف يثير الرعب كثيراً... لكنه لا يبعث قلقاً لدى الرجل... سألني إن كنت خائفا.. وأجاب من غير انتظار لإجابتي... التي لم أحدد كنهها حتى تلك اللحظة، فأردف: **(ما في شيء)...** بمعنى أن ذلك أمر عادي ...

طيلة هذه الجلسة أمام رجل كهل... يحمل هموم الدنيا بكلياتها... نزوح، وفراق، وضياع للولد.. والمال.. والأهل.. والأصحاب، وفوق كل ذلك الاستقرار...رمت به المقادير هنا... حيث احتوته أرض يباب.. لا تحمل بين ثناياها إلا كل ما يوحي بالهلاك والضياع...

طيلة الجلسة لم تنبث المرأة العجوز بكلمة واحدة، فهي متلفعة بتلك القطعة من القماش المتسخة، التي تفاعلت معها وتناصحت... في سبيل ستر العورة، وما قد علا الهامة... من بقايا شعيرات واهنة بيضاء، تلاعبت بها سموم ذلك اليوم المشمس..فعرفت إلى أي مدى تكمن طاعة المرأة السودانية لوليها... والقيام بخدمته حتى عند حدود الحياة.. في أرذل العمر، من غير تضجر... أو تجاوز للحدود التربوية، التي نشأت عليها...وفوق كل ذلك، معنى أنّ الرجال قوامون على النساء...فلك التحية أيتها العجوز الوفية.

تركت الرجل وزوجه... وأوليتهم ظهري غير أن دموعي كانت تتقاطر... متدحرجة للأسفل، ليس من عيني الناشفتين.. الشاحبتين ...بل دموع تداخلت مع نبضاتي الواهنة... النابعة من قلب باتت تحشوه الآلام... والأوجاع، من فرط ما قاسى من المعاناة... التي لازمته ولم تغادره حتى اللحظة.

omerelammas.com

خواطر... الحلقة الحادية عسرة **الدكتور/ عمر محمد العماس**

أمسيات في قادم قفريت

أمثال الرجل العجوز الذي جالست... كثيرون، فالرجل وامرأته.. إثنان من بين ثلاثة آلاف... لا يملكون في الدنيا إلاّ **(راكوبة)** كروية الشكل، **(مرمية)** في قعر واد قفر... و يملكون في ذات الوقت، مساحة صغيرة من الأرض... ظفر بها كل فرد من أولئك الضائعين، كي تكون قبراً مستقبلياً له... إن لم تجرفه رياح الترحال إلى واد آخر، فالموت إن كان هنا أوهناك... فهو لا يرحم.

لكم أنتم جاهزون له يا عراة الحرب... وحفاتها، وجياعها، ومرضاها... أخال أن القناعة بالمقسوم لكم...كانت كافية أن تحبس الدموع في المحاجر.. وأن تتلكأ **(القنتة)** عند الخروج من الصدور... وأن ينسد البلعوم.. فلا يترك سانحة لابتلاع قطعة صغيرة... **من.. (قراصة الفتريتة)** تلك، وأن لا يجد الخيال متسعاً... لتحديد هوية الحياة الآنية أوالمستقبلية، على حد سواء. ما أصبركم يا.. **(حبش)...** على البلاء، تشريد... وجوع.... ومرض... وموت يتربص.

السل هنا في ربوع هذا المعسكر، ينبش كل مستور لدى الجميع... غادرت اللحوم موطنها من الأجسام، التي أصبحت عارية تماماً منه، ورقت العظام... وبانت الهياكل... حتى من تحت الغطاء، وأفرغت الصدور مما تحوي... من عصارات ودم... وأفرغت البطون من بقايا الفرث والماء... ومن بعد كل ذلك فهم يأملون في البقاء... ولا شك أنّ الأعمار بيد الله..

شاهدت كثيرا من السكان يتساقطون... واهنين، مما توطن بهم من الإعياء... وشهدت بعض جثث الموتى... تحمل على الأيدي... فهم من الصغار، ملففون بأغطية قماش بالية... ومن جثث الموتى ما يحمل على **(النقالات)...** إن كانوا كباراً، شمل الموت الرجال، كما شمل النساء، وشمل الكبار وشمل الصغار... فهو كخبط العشواء وقد جاء على لسان شاعر:

رأيت المنايا خبط عشواء...

من تصب... تمته...

ومن تخطئ.. يعمر فيهرم.

لقد كان وقع خبر الموت في نفوس أولئك المعسكرين... أمراً طبيعياً لا يحرك وجداناً... ولا يظهر شفقة، فكان الناس هنا، يموتون على رأس كل ساعة... ويدفن بعضهم من غير صلاة... وقد شهدت كل ذلك بنفسي...

لقد بات من المحال تلافي الأمر، فالداء قد استشرى... وجاس بكل ربوع المكان... والدواء الذي يصارع ذلك الوباء الشرس... لم يستكشف بعد، غير جرعات **(البنسلين)** الإضطرارية...التي تعمل على قتل تلك **(البكتيريا العصوية)** مسببة المرض، وسبل الوقاية.. التي لم تعد تؤثر في مثل هذه الحالات... التي نحن نخوض غمارها.

قادتني تلك الجولة داخل المعسكر لأقف عند كل ما هو غير متوقع... **(فكل حال جديد يقول للقديم إنت شنو؟)**، أطفال ضعاف ... يتناغون، يميزهم عن غيرهم من أطفال العالم... كبر الرأس.. وانتفاخ البطن.. ونحول الجسم.. ورهافة الساقين.. وجحوظ العينين.. وهي وبلا أدنى شك... من العلامات الكبرى التي تحدث عن سوء التغذية، الذي يقود بدوره للإصابة بالداء الفتاك.. وباء **(السل)...** فما هم إلاّ هياكل تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار... لا مجال للمرح، ولا مجال للسرور بينهم، كما هي عادة الأطفال... حينما يجتمعون، فهم في كثير من الحالات... يسبلون أجفاناً كلها التعذيب ... فتبدو العينان شبه مغمضتين... من فرط الوهن والإعياء.

هذه هي حالنا في **(قادم قفريت)...** نصبح ونمسي وليس لدينا من جديد... حتى الموت.. لم يعد **(بعبعاً)** يؤرقنا... فقد اعتدنا الأمر، وقد كنا نعلم سلفاً، أنّ العادة هي تكرار الفعل... فقد تتالت علينا دواليب الموت بلا انقطاع.

إجتهد صاحبي الدكتور.. وتفانى هو وصحبه، في بذل كل ما قد كان في وسعهم، لدفع عجلة الحياة إلى الأمام... لكنها كانت تتدحرج في صمت بغيض... نحو الآخرة، ولكنا جميعاً سنتخرج في هذا الموقع... برؤية صحيحة، وعمل جاد، ينال منه أولئك الذين يدفعون بأفراد أممهم... إلى شفا سعير الحرب، الذي سيعطل كل طاقة... في سبيل بناء وطن معافى.. سينالون كل أصناف السخط واللعنة... وتبقى العظات، والآمال، التي تشد العضد... وتدفع الناس لبناء أوطانهم... وتمهيد سبل الحياة الهانئة لهم.

(أمسيات قادم قفريت) ظلت ومنذ أكثر من ثلاثة عقود... من الزمان، تتعانق... وتتناطح... مع دواخلي، في عراك مستمر... لا يعرف الوهن، ولا الخنوع، فأثارت فيها الكثير من التساؤلات والاستفسارات بكل أنواعها:

omeralamin.com

ماذا كان من أمر أولئك الضائعين مأوى الجوع... والمرض؟ وما ذا كان من أمر **(قادم قفريت)** ؟ وهل غادر القوم؟ وإن كان ذلك ما حدث فإلى أي وجهة يا ترى غير المقابر؟

وسائل الإعلام تبث لنا الأخبار وتحدثنا: أن إقليم إريتريا قد انفصل عن الدولة الأم عام ١٩٩٥م... وأصبح دولة مستقلة، فزرتها وباركت لأهاليها، الذين لا يزالون يعيشون... على ذكرى ما تجرعه أسلافهم... فباركت لهم كثيراً زوال معسكر **(قادم قفريت)** حسب توقعاتي.

دعتني ظروفي لأن أزور من كنت أحبهم كثيراً ، **(أحباش)** أثيوبيا...وهم الآن في ديارهم... من غير سلاح يتقلدونه... زرتهم عدة مرات... فسررت كثيرا... وأرضيت طموحاتي التي لازمتني بعضاً من أيام عمري.

وداعاً **(قادم قفريت)**... الذي أبكاني ردهاً... ولا زال يبث الألم بما خلف عندي من ذكريات باقيات... ما بقي العمر ...ووداعاً خلف الله... الطبيب المجاهد، ووداعاً عبد الرحيم الضابط الجسور... ووداعاً حاراً لك يا سائق العربة المغلوبة على أمرها، والتي لا أشك أنها الآن قد توارت عن الأنظار... في ما بعد النهايات أسوة بالمرحوم **(قادم قفريت).**

omerelamnas.com